ولدها .. الآخر

قصة بقلم محمد ابو المعاطي ابو النجا

[مهداة الى كل ما هو انساني ولو كان ذبابا ...]

كانت تحاول ان تنام ولكنها لم تستطع . كانت تشعر بقلق غريب على هذا « الولد » الذي لا يهتم بصحته . ولا يعبأ بنصائحهـا التي لا تسأم من تكرارها له كل يوم . ومع ان هذا « الولد » قد نام الان تماماً وانقطع سعاله ، فانها هي لم تستطع النوم . لقد اصبحت تشعر كأنه ولدها ، اجل ولدها ... وماذا بقي لها في هذه الدنيا سواه ؟ سيشفى في الصباح . لن تتركه يمرض بعد اليوم ابداً . انه لم يبق على موعد الامتحان سوى اسابيع . ينبغي ان يظهر خلالها سليماً معافى . وخشيت ان يكون الغطاء قد انحسر عنه بعد ان راح في النوم فقامت من فراشها ، ومشت على اطراف اصابعها الى حجرته المجاورة لها ، ثم فتحت بابها برفق واجالت عينيها فوق الفراش واطمأنت الى انه لا يزال كما تركته ، وان « الولد » غارق في النوم وان كان تنفسه عسيراً ، وما لبثت ان عادت الى فراشها ثم راحت في نوم عميق ..

★

كانت الست «نعيمة» تعيش في بيتها بحي « السيدة » حياة حزينة منطوية بعد ان مات وحيدها « صلاح » وهو بعد لا يزال في مقتبل العمر تلميذاً بالمدرسة « الخديوية ». ولم يكن لها سواه ؛ فقد مات زوجها الشيخ حسين المدرس بمدرسة « عابدين » منذ اعوام تاركاً لها ذلك المنزل الذي تقيم فيه الآن وذلك المعاش الذي تتقاضاه من وزارة المعارف. بيد انها لا تدري الآن ماذا تفعل بهذا كله بعد أن مات وحيدها « صلاح » . لقد كان يملأ هذا البيت بحركته التي لا تهدأ ، وينفق هذا المعاش بمطـالبه التي لا تنتهي . أما الآن فهي لا تدري ماذا تفعل بهذه الحجرات كلها سوى ان تتركها مغلقة النوافذ والأبواب، مكتفية بهذه الحجرة التي تنام فيهـا من ذلك البيت الموحش الحزين ... وأما المعاش فهي تنفق منه ما تبقى عن حاجتها على هؤلاء الفقراء الذين يعيشون في كنف « ام هاشم » . وأما هي فقد كانت تنفق حياتها في صلاة حزينة متقطعة فوق تلك السجادة الطاهرة ويدها الواهنة المرتعشة لا تكاد تفارق المسبحة، بينما نظراتها الحزينة الساهمة لا تفارق صورة ولدها المعلقة على الحائط .

وكانت لا تغادر بيتها إلا لزيارة « أم هاشم » أو « سيدنا الحسين ». ففي هذه الاماكن الطاهرة تقر عينها ، وتهدأ جوانحها ، وتهب على حياتهـا نسمات العزاء. وفي أغلب الأحايين كانت بعد عودتها من تلك الزورات تعرج على منزل الست « عزيزة » فهذه الست الطيبـة هي كل ما بقي لها من أيام الماضي الجميلة ، فكثيراً ما كانتا تتبادلان الزورات في حياة زوجهـا . ولم تنقطع الست « عزيزة » عن زيارتها بعد أن مات وحيدها « صلاح » ... على أن الست عزيزة لم تكن راضية عن حياة صاحبتها تلك الحزينة المنطوية. وهي امرأة تؤمن بالله . فكانت دائماً تلح عليها بأن تؤجر حجرة من بيتها الى طالب من هؤلاء الذين لا ينقضي بحثهم عن مسكن ... ولم تجد الست « نعيمة » بداً من ان تستجيب لرغبة صديقتها المتكررة فعلقت ، على باب بيتها ورقة تعلن عن وجود حجرة للايجار . ولم يطل بها الانتظار حتى جاء الساكن الجديد أو صاحب النصيب كما كانت الست نعيمة تقول ... وكان صاحب النصيب هذا طالباً جامعيـاً يناهز العشرين من عمره ...

وانتقل الطالب إلى بيت « الست نعيمة » ومنذ ذلك الحين وهي تشعر ان حياتها هي الأخرى قد انتقلت من طور إلى آخر ... لقـد بدأت تصحو مبكرة لتعد له طعام الأفطار ، حتى إذا خرج إلى الكلية قامت هي بترتيب حجرته ولا تكاد تفرغ من تنظيفها ، حتى تبدا تعد له طعام الغداء ، ومن هنا كانت تخرج من البيت لشراء ما يلزم من صنوف الطعام .

وفي العصر ، كانت تصنع له الشاي بعد أن يكون هو قد آوى قليلاً إلى فراشه ثم يجلس ليذاكر بينما تنصرف هي لترتق ما قد يكون ممزقاً من جواربه أو قمصانه .. حتى إذا دخل المساء جلسا يثرثران أحياناً .. فيحدثها عن أمه التي في القرية ، وعن أخته الصغيرة « خضرة » التي كانت تريد أن تأتي معه إلى القاهرة لترى الترام الذي يسير في الشارع ، وعن رغبة أبيه في ان يزوجه من ابنة عمه ، وعن كلبه الصغير الذي أحضره من منزل « العربي » راعي الغنم ليتسلى عليه في الاجازة ، وتحدثه هي عن ولدها ... ولدها الذي لو عاش لكان مثله الآن في الجامعة ، ثم تسترسل في الحديث عن الأشياء التي كان يحبها ... كان يحب « عبد الوهاب » ويقف إلى جوار النافذة ليسمع أغـانيه من راديو المقهى القريب ، وكان يفصل صوره من المجلات ويعلقها على الحائط ... وكان مع ذلك لا ينسى دروسه أبداً ، وكثيراً ما كانت تحول بينه وبين التمادي في السهر حتى لا تذبل عيناه من كثرة القراءة. كانت عيناه جميلتين ، وبنات الشارع كن يحلمن به ... و... و... وينتهي حديثها عادة بهذه العبارة المؤمنة ... يا لله يا بني ... كله عند الله ...

وهكذا بدأت حياتها المنطوية تتفتح قليلاً ... قليلاً ، وبمرور الايام أصبحت تشعر أن هذا « الولد » صار جزءاً من حياتها الجديدة ، فهي لا تنام إلا بعد أن ينطفيء نور حجرته ، وهي تصحو قبـله حتى توقظه في الموعد الذي يريـد ، وهي لا تغفر له أن يخرج في الليل بدون أن يرتدي معطفه ... وإذا سهر في الخارج اطول مما ينبغي فهي لن تنام قبـل ان تعرف أين كان يسهر ومع مـن ؟ وهي تستحلفه بمقام الحسين ألا يكذب عليها ... على ان هذا لا يمنعها من أن تحـدثه عن أضرار السهر خاصة في ليالي الشتاء ، ثم هي لا تملك نفسهـا من الغضب إذا رأته مرة يدخن ولا تصدقه أبداً حين يقسم لها أن تلك آخر مرة يدخن فيهـا ... كانت بلا ريب تشعر أنه لم يعد مجرد طالب يستأجر احدى حجرات البيت ، وكانت تبدو قلقة إذا تأخر عن موعد حضوره من الكلية ، ولا يطيب لها الطعام إلا بعد أن يحضر ، ولا تغفر له انه لم يخبرها بنيته في التأخر ... على انها لم تكن تعرف حقيقة شعورها نحوه إلا في هذه الليلة حين عاد متأخراً على غير عادته ... كان يبدو شاحب الوجه ، واهن الخطى ، قلق النظرات . ولم يكد يدخل حجرته حتى ألقى بنفسه فوق السرير ، وتركها هي تخلع عنه ملابسه . وأحست وهي تخلع ملابسه حين لامست يدها جسده أن حرارته مرتفعة . فقالت له عاتبة وهي تسوي فوقه الغطاء :

— ألم أقل لك البارحة لا تترك زجاج النافذة مفتوحاً وأنت نائم ؟ لقد قلت وقتها إن الجو حار . ولكنك لا تعلم أنه يبرد عادة كلما تقدم الليل .

ونظر اليها في ضعف وألم وقال بصوت واهن :

— لن أخالف كلامك بعد اليوم ... ولكنني الآن متعب ... وأرجو أن ...

— لا تخف... سأصنع لك شراباً دافئاً وبعد أن تشربه أضع إلى جوارك زجاجات الماء الساخن وبعدها سوف يتصبب منك العرق وتستريح ...

وكانت وهي تعد له الشراب الدافيء تسمع سعاله الحاد المتقطع فتشعر

كأنه يمزق صدرها . لماذا لا يسمع هذا الولد كلامها ؟ إنه لا يعرف الآن ما يسبب لها من ألم ..!

هكذا جميع الأولاد ، لا يعرفون شيئاً عن الآلام التي يسببونها لذويهم حين يصيبهم مكروه ، ماذا لو انه أغلق زجاج النـــافذة ؟! ولكن كلهم هكذا ..! ستقفله هي دائماً بنفسها بعد اليوم .

وعادت وفي يدها قدح من « الينسون » وجلست إلى جواره في الفراش وساعدته على النهوض . قم يا كمال . قم يا حبيبي . أسند ظهرك إلى صدري ، سأمسك عنك القدح لأنه بدون طبق . ولا يزال ساخناً ... وتبدأ تسقيه على مهل ... رشفة ، رشفة ... وتحس وهو في صدرها كأنه صبي صغير ... مجرد صبي . وليس شاباً ... صبي لا احد له هنا سواها ... وهي من لها سواه ؟ هؤلاء الأولاد ، لماذا يظنون انفسهم رجالاً ..؟ ولكنهم أبداً سيبقون بالنسبة لنا مجرد أولاد ... أولاد صغار ...

— كمال ، ولدي ، لا تغضب مني ... سوف أرقيك ... لماذا تنظر إلي هكذا ..؟ كان هذا ايضاً يغضب صلاح ... انتما من طينة واحدة ... ولكن دعني بالله أرقيـــك ..! ويتمتم كمال بصوت خافت :

— أنت تذكريني بأمي ... إنها هي الاخرى تفعل ذلك ...

فقالت وقد أحست بضيق لاتدري مبعثه :

— أمك ؟ مالنا ومالها ... دعنا منها الآن ... أنا هنا امك ..!

وراحت يدها تمسح جسده برفق حنون وشفتاها تتمتمان بدعـــاء خافت .. وحين فرغت من رقياها قامت لتحضر لهزجاجات الماء الساخن ... كانت في الواقع تحاول جاهدة أن تخفي جزعها عنه ... كانت تخشى أن تكون نوبة البرد شديدة . وأن يطول به الألم . لقد طاف بخاطرها أن تتصل بذويه . أن تطلب ذلك من أحد أصدقائه الذين يترددون عليه. غير انها كانت لغير سبب واضح تضيق بهذا الخاطر وتدفعه عنها باصرار . إنها نوبة برد خفيفة . وسيشفى منها باذن الله بعد أن يتصبب عرقه ... الفاتحة لأم هاشم ... وتتمتم شفتاها بالفاتحة ... ثم تضع حول جســده زجاجات الماء الساخن وتغطيه .

— تصبح على خير يا كمال ... وأغلقت وراءها باب حجرته بعد أن أطفأت النور وآوت الى حجرتها المجاورة . كانت تحاول أن تنام ولكنها لم تستطع . كانت تشعر بقلق غريب على هذا « الولد » الذي لا يهتم بصحته ولا يعبأ بنصائحها التي لا تسأم من تكرارها له كل يوم ... ومع أن هذا « الولد » قد نام الآن تماماً وانقطع سعاله فانها هي لم تستطع النوم . لقـد اصبحت تشعر كأنه ولدها ... أجل ولدها ... وهل بقي لها في هذه الدنيا سواه ؟ سيشفى في الصباح . ولن تتركه يمرض بعد اليوم ابداً . إنه لم يبق على موعد الامتحان سوى أسابيع ينبغي أن يظل خلالها سليماً معـــافى . وخشيت أن يكون الغطاء قد انحسر عنه بعد أن راح في النوم فقامت من فراشها ومشت على اطراف اصابعها إلى حجرته . ثم فتحت بابهـــا برفق وأجالت عينيهـــا فوق الفراش واطمأنت إلى أنه لا يزال كما تركته . وأن « الولد » غارق في النـــوم ، وإن كان تنفسه عسيراً . وما لبثت أن عادت إلى فراشها ثم راحت في نوم عميق ..!

★

وفي صباح اليوم التالي وقبل أن يصحو « كمال » من نومه كانت هي قد غادرت فراشها ، لتعدّ له قدحاً من الحلبة يشربه وهو راقد في الفراش وحتى لا تتركه يغادر سريره قبل ان يجف العرق تماماً . كانت موقنة بأن عرق الشفاء كما تسميه سوف يتحدر من جسده آخذاً معه البرد ، والألم ، والسعال ، والحشرجة . وفي حرص بالغ فتحت باب حجرته فرأته لا يزال راقداً وإن كانت عيناه تنفرجان عن نظرة كسول ... صباح الخير .. سأحضر لك الحلبة ... لا تـــترك الفراش حتى يجف عرقك . ونظر اليها « كمال » في امتنان عميق وقلبه يخفق من فرط التأثر .

كانت أشبه بالملاك ... وجه هادىء كريم يمتزج في قسماته المعبرة وقار الشيخوخة بجمال الايمان وعينان يسيل منهما الحنـــان والعطف وفم ودود وكأنه في صلاة دائمة لا تنبعث منه سوى الكلمات الطيبـــات ... وطرحة الصلاة البيضاء تحيط بالوجه في جلال ساحر ...

وفي ذلك اليوم لم تتركه يغادر البيت الى الكلية ... وإنما عكفت عـــلى حجرته تحنو عليه وترعاه حتى أحست أنه استعاد صحته تماماً ...

كان الامتحان يقترب يوماً بعد يوم . وكان هو الآخر يتضاعف جهده يوماً بعد يوم ، أما هي فقد أصبحت حياتها كلها من أجـــله ... تصنع له القهوة لتساعده على السهر ، ولا تذهب إلى حجرتها لتنام إلا بعد أن تقفل هي بيدها زجاج النافذة . وبعد ان تسوي فوقه الغطاء ... بيـــد انه كان لا يلبث بعد خروجها بقليل أن يزيح عنه الغطاء ثم يوارب زجاج النـــافذة قليلاً . فقد كانت أنفاس مايو الملتهبة تكاد تخنق المكان ... وكانت لاتقطع زيارتها الأسبوعية لسيدنا الحسين وأم هاشم لتدعو له بالنجاح ولا تبخـــل في سبيل ذلك بالنذور تقدمها لصاحب المقام الكريم ... وجـــاء الامتحان . فضاعفت من عنايتها به .. كانت تود دائما أن تراه سعيداً لا يعكر صفـــاء

مزاجه شيء ... كانت تشعر بسعادة بالغة عندما تسمع صوته وهو يذاكر. كان أحياناً يذاكر بصوت مرتفع وحين يمل المذاكرة يرتفع صوته ببعض الأغاني الشعبية يرددها وهو يتمشى في حجرته أو يرتفق بيديه حافة النافذة ثم يختلط غناؤه أحياناً ببعض العبارات الغزلة والصفير العابث فتعرف أن « فوزية » لا بد قد وقفت تنشر الغسيل بالشرفة المقابلة ... وعندما تحس انه سئم المذاكرة تسرع اليه بالقهوة فيشربان معاً بينما ينطلق هو في حديث مرح عن فوزية أو « فوفو » كما كان يحلو له ان يناديها ... وكيف ان مشابك الغسيل كانت تسقط من يدها الفرحة حين يشاغلها بكلماته الغزلة... وكيف أن وجهها الجميل كان يتقد بحمرة عذبة حتى ليبدو كالتفاح ... وكيف أنه يتمنى لو تركه الناس يأكل من هذا التفاح ... ثم لا تنسى هي أن تحدثه عن بنات زمان وكيف كن أوفر حياء وأدباً من بنات هذه الأيام ..! فيقول لها عابثاً :«ربما ... ولكن ألا ترين أن تفاح هذه الايام أحسن من تفاح زمان ؟ » وكان أيضاً يعرج بالحديث على العلوم التي تحنقه فيحدثها عن برود الفلسفة وسخف علم الاجتماع وكيف أن علم النفس يحشر « نفسه » دائماً في كل شيء ... وأنها أحسن حظاً منه في هذه الدنيا لأنها لم تتعرف على هذه العلوم الكالحة ... وكانت هي تسمع منه كل ذلك راضية مغتبطة وهي لا تفهم شيئاً مما يقول ..!

★

وفرغ « كمال » من اداء الامتحان ... وانتهى حديثه عن الكتب والمذاكرة والتعب وبدأ يحدثها عن أمه . وعن أخته الصغيرة . وعن أبيه. وعن القرية . وعن الكلب الذي لا يشك في أنه قد كبر . وأنه سيتعرف عليه حتما حين يسافر بعد هذه الغيبة الطويلة ... إنه يريد أن يشتري هدية لأخته الصغيرة فماذا تقترح هي أن تكون ، على أن يكون ثمنها متواضعا حتى يستطيع ان يشتري أيضاً مسبحة لوالده من خان الخليلي ... وأمه ..؟ هل يتركها بدون هدية ؟؟

وهنا كانت الست نعيمة تعاني ضيقاً خفياً لا تدري مبعثه ... وكانت تبذل جهداً كبيراً لتداري عنه ذلك الضيق وهي تشاركه في الحديث . وبدأ يعد أشياءه للرحيل . غداً يسافر او بعد غد . وكانت هي تعاونه في إعداد حاجاته ... لقد انتهى من عمره عام ، أما هي فقد انتهى « ..... » !!

كانت لا تدري كيف ستبدأ حياتها من بعده ، ذلك « الولد » الذي رد اليها الحياة..!

ومضت تهيىء له كل شيء، تطوي ملابسه وتعد حقائبه وتربط الاشياء بعضها الى بعض ... سيأتي الحمال بعد قليل ... وأتى الحمال . وجعل ينقل الى عربته السرير . والمكتب ، والكرسي ، والحقائب ، كانت هي اذ ذاك تبدو مسلوبة الوعي ، مأخوذة القلب حائرة النظرات . كانت كأنها لا تعرف ماذا يحدث ! لماذا جاء هذا الحمال إلى هنا ..؟ ولماذا يأخذ هذه الحاجات الى الخارج ؟ ولكن ماذا يأخذ هذا الرجل ؟ هل يأخذ فقط السرير والمكتب والكرسي والحقائب ؟ إنه بلا شك يأخذ شيئاً آخر عزيزاً عليها ... وإلا فلماذا تبدو هكذا لا تكاد تملك نفسها ... إن كمال يهم بالخروج هو الآخر وراء هذا الحمال ... يا له من حمال قبيح المنظر رث الثياب . ألم يجد كمال حمالاً آخر خيراً منه ..! .. انه يمد يده ليسلم عليها ... هذا الولد ... لماذا دائماً يظن نفسه رجلاً؟ واحتوته بين ذراعيها في حنان جارف . كانت لا تود أن تتركه ... الحمال القبيح ينظر إليهما وكأنه ينتظر ... كمال ... ولدي ... سوف تأتي لتزورني كثيراً ولن تنسى ابداً ... ستحضر معك اختك خضرة ... آه لقد نسيت أن تترك صورتك ... هاتها إذن ... سوف أضعها الى جوار صورة أخيك صلاح ... وتركها « كمال » بعد أن أعطاها صورته ... وبدأت العربة تتحرك . والحمال القبيح يلهب ظهر حصانه ، وصوت الجرس المعلق في عنق الحصان يختلط بصوت العجلات وهي تصطك بالارض . وآخر خصلة من شعر « كمال » الثائر تتوارى عن عينها في بطء قاتل ... وانتهى كل شيء ...

★

واستدارت الست « نعيمة » لتدخل البيت بخطوات ذاهلة . ثم دارت بعينيها في الصالة الفسيحة . كان باب حجرة كمال مواربا ... ولا تدري لماذا تقدمت منه وفتحته وجالت بعينيها في الحجرة ... أكانت تبحث عن شيء ؟ لم يكن هناك سوى قصاصات قديمة لجرائد ممزقة لم تستطع هي ان تراها تماماً من خلال الدموع الغزيرة التي تسابقت الى عينيها . لقد خيل اليها أن البيت كله مليء بالدموع، وشيئاً فشيئاً بدأت الدموع تجف من عينيها وتجف من البيت . وعادت تلتفت هنا وهناك وكأنها تبحث عن شيء لا تعرفه تماماً . وحانت منها التفاتة الى ركن قصي في حجرتها المنعزلة حيث توجد سجادة الصلاة ... واحست بما يشبه الراحة ... راحة نحو شيء مجهول لا تعرفه تماماً ولكنها تطمئن اليه ... وهناك فوق السجادة الطاهرة وفي الحجرة المنعزلة كانت حياة « الست نعيمة » تتضاءل وتنكمش لتفنى في صلاة حزينة متقطعة ويدها الواهنة المرتعشة لا تكاد تفارق المسبحة بينما نظراتها الحزينة الساهمة لا تفارق صورة ولدها المعلقة على الحائط ... ولدها .. الآخر ..

القاهرة

محمد ابو المعاطي أبو النجا

صدر في سلسلة كنوز القصص الانساني العالمي

أرض المآسي

لأركين كالدويل

قصة الفتيات البائسات اللواتي تلجئهن الفاقة الى بيع اجسادهن الرخصة ، وهن ما يزلن في الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، في سوق الرقيق الابيض، وقصة الآباء الباحثين عن بناتهم في سوق الرقيق تلك يرويها اكبر كاتب شعبي يعيش اليوم في اميركة

نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

الثمن ليرتان

دار العلم للملايين